مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 20، العدد 79 (صيف 2009)، ص 132

قراءة خاصة

أنيس الحروب*

يوسف صايغ من خلال سيرته الذاتية

يوسف صايغ، "يوسف صايغ: سيرة غير مكتملة". بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2009. 420 صفحة.

على خلاف سيرة أخيه الأصغر "أنيس صايغ عن أنيس صايغ"، والتي صدرت في سنة 2006 عن دار النشر ذاتها، تأخذ سيرة يوسف صايغ منحى مختلفاً كونها تُروى على لسانه، لكن من خلال أشرطة مسجلة كانت زوجته روزماري (الفلسطينية المستعربة من أبوين بريطانيين كما وصفها أنيس صايغ) قامت بحفظها طوال أعوام عديدة إلى ما بعد وفاته في سنة 2004، وذلك لتوثيق تاريخ سوري فلسطيني لبناني مشترك شكّل في نتاجه وموروثه الاجتماعي هوية آل صايغ في مراحل إقامتهم وهجراتهم. وتناولت سيرة يوسف صايغ في فصولها الثلاثة عشر ذكريات امتدت من سنة 1918 إلى سنة 1995، وتم، من خلالها، توثيق مراحل تاريخية مهمة بدءاً من باكورة ذكرياته في قرية "خربا" في حوران، انتقالاً إلى قرية "البصة" قضاء عكا، ثم إقامة عائلته في طبرية خلال التحاقه بمدرسة صيدا الداخلية وما بعدها. وقد تلا ذلك دراسته الجامعية في الجامعة الأميركية في بيروت، وانضمامه إلى الحزب السوري القومي، ثم عمله مدرساً في العراق، وبعد ذلك مديراً لفندق طبرية، ثم عمله مع شركة "سابا وشركاه"، وإدارته لبيت المال العربي قبل وقوعه أسير حرب في يد الإسرائيليين في سنة 1948، ومن ثم انتقاله إلى عالم الاقتصاد والسياسة.

لم يكن يوسف صايغ – خلافاً لزوجته روزماري – متحمساً لنشر مذكراته، فتواضعه منعه من كتابة سيرة كنا من أشد المؤيدين لمعرفة تفصيلاتها. ولتدارك الأمر استغلت روزماري صايغ – وبذكاء الباحث – فرصة سنحت لها في نيسان/أبريل 1989 لتسجيل مجموعة مهمة من مذكرات يوسف عندما اضطر وهو في الثالثة والسبعين إلى قضاء عدة أسابيع في البيت طريح الفراش بسبب جراحة في قدميه، فقامت خلال تلك الفترة بتسجيل واحد وعشرين شريطاً من أشرطة "الكاسيت" شكلت الجزء الأكبر من الكتاب، وتناولت حياة يوسف الأولى بعد ولادته في سنة 1916 حتى وفاة والدته في سنة 1950. وهنا دار ثلثا هذه المذكرات على أعوام تكوينه الأولى بدلاً من الأعوام التي أصبح فيها منتجاً. وعلى الرغم من تسجيلها مجموعة ثانية وأخيرة ما بين سنتَي 1996 و1997 تمحورت حول مشاركة يوسف في السياسة الفلسطينية، فإن مذكراته في نظر روزماري لا تزال غير مكتملة لأنها لم توثق ذروة أعوام مسيرته المهنية؛ تلك المسيرة التي كتب فيها 16 كتاباً باللغة العربية، و9 كتب باللغة الإنكليزية، ونشر 34 مقالة وبحثاً اقتصاديين في دوريات عربية، و12 مقالة في دوريات أجنبية، إضافة إلى ما نشره بشأن القضية الفلسطينية من خلال عمله أستاذاً في الجامعة الأميركية في بيروت، ومستشاراً لدائرة الشؤون الاقتصادية والتخطيط التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وعلى الرغم من عدم اكتمال السيرة الذاتية ليوسف صايغ، فإن الفصول الأولى للكتاب جاءت غنية ومفصلة، وتناولت شريحة عربية مسيحية مهمة تشكل عنصراً أصيلاً في المشرق العربي، كما رسمت خريطة تاريخية وجغرافية لوجود هذه الشريحة وتفاعلها مع غيرها من الشرائح كالدروز في حوران والمسلمين في عكا. وكان تأثير الباحثة الاجتماعية روزماري واضحاً – كما اعترفت بذلك في تمهيد الكتاب – في توجيه دفة الإبحار في ذكريات يوسف من خلال إثارتها نقاطاً تهمها – كما تهم القارئ – بشأن التاريخ الاجتماعي للقرى والمدن التي استقرت فيها عائلة صايغ، وهو ما عدّته خطأ منهجياً على الرغم من اقتناعنا بمميزات هذا المنهج إذا ما اتفقنا على سلبياته. فلو قُدر ليوسف صايغ كتابة مذكراته بنفسه، هل كان سيستطيع، ومن دون استخدام الأشرطة المسجلة، كتابة وذكر كل ما فُصّل في فصول الكتاب الأولى؟ وهنا يبرز سؤال آخر عن

حاجتنا إلى وجهة نظر أُخرى من أجل التركيز على بعض الجوانب الاجتماعية والتي قد يغفل صاحب السيرة الذاتية عن ذكرها وتفصيلها، وهو ما يقودنا إلى سؤال آخر وهو: هل ينبغي للسيرة أن تكون أقل ذاتية وأكثر موضوعية كي يتقبلها القارئ؟ في ظننا – وليس كل الظن إثماً – أنه لا يوجد إجابات حاسمة عن مثل هذه الأسئلة، لكن العرض التالي يبرز ما حملته تفصيلات هذه السيرة من أهمية اجتماعية وتاريخية، ومنها ما اعتُبر جريئاً وحتى جديداً – في ثقافتنا العربية – فيما يتعلق بذكر علاقات جنسية لصاحب السيرة.

ولد يوسف صايغ في قرية "البصة" قضاء عكا وهي قرية والدته، ومنها انتقل والداه إلى قرية "خربا" الحورانية مسقط رأس والده. ويرسم يوسف صورة بدائية عن قرية "خربا"، فيذكر أنها قرية مسيحية جرداء خالية من الأشجار عدا الشجرة التي زرعها والده القسيس عبد الله صايغ يوم باشر في بناء كنيسته الإنجيلية في سنة 1923، وأنها تقع بالقرب من درعا، لكنها تابعة لمحافظة السويداء مقر عائلة الأطرش الدرزية، مع أنها أكثر تبعية لحوران منها إلى جبل الدروز. وكان يُنظر إلى أهل حوران نظرة دونية، وهذا ما جعل أقارب أمه في قرية "البصة" يعترضون على خطبتها بوالده الحوراني في البداية، غير أن زواجهما تم في نهاية الأمر، لكن في قرية "البصة"، ولم يكن ذلك إلاّ لأن والده أراد أن يتوارى عن الأنظار ويبتعد عن قريته "خربا" للتخلص من التجنيد الإجباري في الجيش العثماني. ولم يكن في القرية حافلات أو قطارات أو بنوك، وكان والده يملك الدراجة الوحيدة في القرية، كما كان في القرية بئران، واحدة تشرب منها الحيوانات، والثانية قاعها قذر وتكثر فيه السلاحف. وكان أطفال القرية يلبسون الجلابيب، وغالباً ما يُرى القمل على شعورهم، ومن النادر أن تجد بينهم مَن يلبس حذاء. أمّا اللباس اليومي لرجال القرية فهو "الشروال" والكوفية والعقال، إذ لم يكن الطربوش يُلبس كما هو الحال في فلسطين، بينما كانت النساء – المسيحيات والمسلمات – يلبسن الثوب الأسود الطويل لكن من دون ملابس داخلية، وهي عادة يشتركن فيها مع الرجال في حوران. ويذكر يوسف أن هذا هو السبب الذي جعل بعض أعضاء الكنيسة التقليديين يعترضون على مشروع والده في إقامة الكنيسة بشكل مرتفع بعض الشيء بحيث يُصعد إليها من خلال درج، إذ قالوا: "لا يمكن أن تبني كنيسة إلاّ في طابق أرضي" لأنه "مش لايقة". وكانت حياة "خربا" مملة، وأطعمتها بغيضة، وكان انتقاله وعائلته منها قدرياً وذلك بسبب أحداث سياسية مرتبطة بثورة سلطان باشا الأطرش على الفرنسيين في جبل الدروز في سنة 1925. ففي تلك الثورة قام الدروز بمهاجمة القرية ظناً منهم أن سكان القرية المسيحيين هم ضد الثوار الدرون، وبعد نصف ساعة من هروب العائلة من القرية، وفي الوقت الذي كان والده غائباً في دمشق، رأى يوسف مشهداً ظل محفوراً في ذاكرته، هو منظر النيران وهي تلتهم بيته والكنيسة التي بناها والده، وكان منظراً أحزنه كثيراً وظل عالقاً في خياله في الوقت الذي رددت أمه قائلة: "الله بعوّض، الله بعوّض." كان الرحيل مؤثراً، ومع ذلك، فإن انتقال العائلة إلى قرية "البصة" قضاء عكا كان مطلباً لطالما أراده يوسف، فهي قرية جميلة تسر الناظرين، وتكثر فيها أشجار الخروب والزيتون والتين والرمان والعنب، ويحب أهلها المرح، وتكثر فيها المقاهي، ويعزف الناس فيها على الآلات الموسيقية كالمجوز والشبابة ويغنون العتابا. وفي القرية شارع رئيسي تكثر فيه المحال التجارية، وتتفرع منه ساحتان، الأولى في الحي الأورثوذكسي، والثانية في الحي الإسلامي. ويعمل أهل القرية – وثلثا سكانها من المسيحيين – في الزراعة والجهاز الحكومي والرسوم، وهم مؤيدون للحاج أمين الحسيني، كما أنهم متحررون جداً، يشربون المشروبات الروحية ويلعبون الميسر ويقومون بتهريب البضائع من لبنان وإليها. ويكثر في القرية الزنا والرقص الشعبي وحفلات الزواج والأعياد، ويرقص الشباب والفتيات معاً غير منفصلين في الدبكة، كما تكثر النشاطات الثقافية، إذ تُعرض مسرحيتان إلى ثلاث كل سنة، وهي مسرحيات مترجمة من الفرنسية إلى العربية. وفي خلال عرض يوسف لشخصيات القرية يستذكر حكايات عدة عن ذلك المصري المسلم الذي تنصر – وكان مؤذناً ووالده شيخاً – ولجأ إلى القسيس عبد الله والد يوسف الذي أسكنه مع العائلة. وزادت معرفة يوسف في هذه القرية بالعديد من الأمور الجنسية كتعرفه على الواقي الذكري، وسماعه قصص مضاجعة النساء، كما يروي قصصاً مثيرة كقصة حفيد قابلة القرية، ذلك المخنث والمتشبه بالنساء، الذي كان مولعاً بملابسهن وباحتذاء الكعب العالي وحلق ذقنه وإزالة الشعر عن رجليه ووضع البودرة على وجهه وأحمر الشفاه، بالإضافة إلى عدة قصص تبرز جانباً مذهلاً عن تحرر القرية كقصص بدايات وعيه الجنسي مع سليمة، وحكايات ابنة خاله المنحلة كيساني، ومحاولة زوجة أبو خضر إغواءه جنسياً، والعلاقة الجنسية لأم غسان (وهي لبنانية أو سورية كان أبو غسان تزوجها في أميركا الجنوبية) مع صديق زوجها مدير المدرسة، وهي التي حاولت أكثر من مرة إغواء يوسف نفسه في بيتها وبيت والديه، وكان لا يزال في ذلك الوقت في السادسة عشرة، فضلاً عن مصارحة ابنها غسان ليوسف عن رغبته في إقامة علاقة جنسية مثلية معه، الأمر الذي أثار فضول يوسف. علاوة على ذلك، يسرد يوسف قصصاً أُخرى كخيانة أم ركاد المتكررة – وهي المرأة الجذابة – لزوجها وبعلمه، وهو ما جعل الزوج يطلب من الأسقف نفسه التدخل لثنيها عن خيانته، لكن من دون فائدة.

انتقل يوسف إلى المدرسة الداخلية في صيدا بعد أن أمّنت له أمه حسماً مالياً من مدير المدرسة، لأن والده كان قسيساً، وكان أحد الطلاب السابقين فيها. وقد ضمت هذه المدرسة مجموعة من المدرسين الأميركيين واللبنانيين، وشكلت مع مدرسة برمانا الثانوية في ذلك الوقت أهم مدرستين في لبنان، إذ كانت مدرسة متوازنة من حيث تركيزها على النواحي الأكاديمية

والأعمال الحرفية والترفيهية. ومن الطلاب الذين عاصرهم يوسف في هذه المدرسة: عبد اللطيف الزين (النائب حالياً في البرلمان اللبناني)؛ كامل مروّة (مؤسس صحيفة "الحياة" الذي اغتيل سنة 1966)؛ معروف سعد (الزعيم الشعبي)؛ رشدي المعلوف (الشاعر والصحافي ومؤسس صحيفة "الصفا")؛ إميل البستاني (انتخب عضواً في البرلمان اللبناني وكاد يتولى رئاسة الجمهورية لو لم يُقتل في سنة 1963). وكانت بدايات حديثه السياسي في الصف السادس مع رشدي المعلوف، وذلك بتفاعلهما مع قضية الأبطال الثلاثة فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم الذين أعدمتهم السلطات البريطانية، وقد لاحظ يوسف من خلال ذلك وطنية أهل صيدا وحماستهم للحق الفلسطيني. ويروي يوسف صايغ عدة حكايات عن معلمي المدرسة، ومنهم معلم الرياضيات (من عائلة شحادة) الذي أصيب بالشطط الديني والجنون بعد أعوام، وكان ذهب إلى العراق للتدريس، وأرسل رسالة إلى يوسف – بعد تخرجه من الجامعة الأميركية في بيروت وسفره بدوره أيضاً إلى العراق للتدريس – يقول فيها إن الوقت حان لحشد جيش الرب، طالباً منه الانضمام إليه! أمّا معلمة اللغة الإنكليزية فدعته ذات مرة إلى بيتها وحاولت إغواءه، فقط كي يختار النص الذي اختارته هي له – وليس نص منافسها المعلم الأميركي – لإلقائه في مسابقة الخطابة باللغة الإنكليزية. وفي السنة الأخيرة، اصطحب المعلم اللبناني للغة الفرنسية خمسة طلاب كان يوسف بينهم، ليقدموا امتحان البكالوريا في بيروت، وقد اختار فندق في الجانب الشرقي من ساحة البرج (ميدان وسط بيروت) للنزول فيه، وكان مقابلاً لمنطقة "الضوء الأحمر"، وهي المنطقة المرخصة لممارسة الدعارة. واكتشف الطلاب أن معلمهم كان يسترق النظر إلى هذه المنطقة، ومن غرفته، بعدما فتحوا عليه الباب.

أنهى يوسف عامه الدراسي الأخير في سنة 1934، وتخرج متفوقاً على جميع أقرانه. ولا يزال يذكر حفل وداع مدرسته الذي حضره والداه اللذان راقبا – وبكل فخر – ابنهما البكر وهو يتسلم الجائزة الأولى في كل من الإنشاء والخطابة باللغات الثلاث الإنكليزية والعربية والفرنسية، فضلاً عن جائزة أعلى معدل في الدرجات، وجائزة خاصة كونه أول طالب من المدارس التبشيرية الأميركية في لبنان يجتاز البكالوريا الأولى. وكان تفوق يوسف معبِّداً لطريق حصوله على منحة دراسية في الجامعة الأميركية في بيروت، تلك الجامعة التي كان اعتمادها على الفلسطينيين يفوق اعتمادها على السوريين واللبنانيين، لأنهم أفضل حالاً وأكثر قدرة على دفع أقساطها الدراسية. وكانت عائلة صايغ انتقلت في سنة 1930 من قرية "البصة" إلى طبرية، وذلك في بداية مرحلة التحاق يوسف بمدرسة صيدا الداخلية، وكانت طبرية مدينة مختلطة عاش فيها العرب واليهود، واشتُهرت فيها عائلات عربية كعائلة الطبري – وكان منها مفتي طبرية – وعائلتي خوري وصباغ. وقد فُتن يوسف – في هذه المدينة – بمنظر البحيرة التي شبهها بمرآة عند السفح تحيط بها جبال صفد والجولان. وكان بيت العائلة جميلاً، ومبنياً على منحدر، ويحتوي عدة غرف للنوم وغرفة للضيافة، فضلاً عن مطبخ كبير وحمامات يتوفر فيها مقاعد لدورات المياه و"دش" للاستحمام. كما تمتعت العائلة بالكهرباء والمياه الوفيرة، وكان للبيت حديقة مزدانة بزهور القرنفل والفل والعُطرة. وفي أثناء زيارة يوسف لطبرية في سنة 1980، وجد أن بيت العائلة لا يزال هناك، لكن الإسرائيليين قاموا بتحويله إلى مطعم صيني. وقد تركز معظم المهن والأعمال التجارية الكبيرة في طبرية، في يد اليهود، كما كان لهم هناك عدة صيدليات ودور عرض للأفلام. وفي حين كانت الفنادق العربية بدائية، إذا ما استثنينا فندق طبرية، فإن فنادق اليهود – المبنية على أعالي التلال – تميزت بمرافقها الكثيرة إضافة إلى خدمة "الدش" والحمامات. وكان في المجتمع اليهودي فرق كرة قدم خاصة بهم، وكذلك مدارس مخصصة لهم، إذ لم يكن أبناء اليهود يلتحقون بالمدارس الحكومية، بل إن مستشفى الإرسالية الإسكتلندية المجاني الذي يعمل فيه العرب، كان موجهاً إلى اليهود – فهذه الإرسالية تهتم بتنصيرهم، وكان أعضاؤها مؤيدين للصهيونية، وتستطيع أن تشعر بتعاطفهم مع اليهود. أمّا فيما يتعلق بالجانب العربي، فكان في طبرية مدرستان للمرحلة الابتدائية، واحدة للبنين، والثانية للبنات، ولهذا كان على إخوة يوسف – فايز وفؤاد – الانتقال إلى مدرسة "سمبل" في صفد لمتابعة دراستهما المتوسطة والثانوية، وكانت أفضل مدرسة في فلسطين في تعليم الرياضيات والعلوم وذلك بوجود السيد سمبل الذي كان عالماً بارعاً في الرياضيات. وفي حين التحق توفيق بالكلية العربية في القدس وكان مديرها أحمد سامح الخالدي، التحق أنيس بمدرسة المطران "غوبات"، وهي مدرسة إنكليزية في القدس.

انتقل يوسف إلى الجامعة الأميركية في بيروت في سنة 1934، وهو يروي قصة طريفة عن كيفية اختياره دراسة إدارة الأعمال والاقتصاد كتخصص برع فيه لاحقاً. فقد كان يرغب في دراسة الهندسة المعمارية، وإن تعذر فالحقوق، غير أن مدير التسجيل فاجأه بأن هذين التخصصين غير متوفرين في الجامعة، وطلب منه الإسراع في اختيار التخصص لأن خلفه طابوراً طويلاً من الطلاب الذين يرغبون في التسجيل. وفي لحظة حيرة من يوسف نصحه مدير التسجيل بدراسة إدارة الأعمال فهو ذاته كان قد درسها، وكان ما كان من اختيار يوسف لهذا التخصص الذي نجح فيه بمرتبة الشرف كواحد من أربعة طلاب فقط في سنة تخرجه، وكان الآخرون هم: رشدي المعلوف؛ منير البعلبكي (أصبح صاحب دار العلم للملايين)؛ بدر الفاهوم (أصبح رئيس شركة التأمين العربية). وشكلت الجامعة بالنسبة إلى يوسف خلية نحل نشيطة تأثر فيها ثقافياً وفكرياً بمختلف الاتجاهات السياسية والأيديولوجية، وذلك من خلال محاضرات ونقاشات شارك فيها أساتذة كبار كشارل مالك، وقسطنطين زريق، وألبرت حوراني، وفؤاد مفرج، إضافة إلى أنطون سعادة. ولم يكن يوسف صدامياً في علاقاته بالمفكرين،

ونورد هنا مثالين ظهرا جلياً مع أستاذ الفلسفة شارل مالك، ومع مؤسس الحزب السوري القومي أنطون سعادة. كان شارل مالك – وبحسب مذكرات أنيس صايغ – متعصباً يمينياً وعنصرياً لا يفتأ محقِّراً السوريين في محاضراته الجامعية – واعتبار اللبنانيين عنصراً أكثر تفوقاً منهم. ويذكر أنيس حادثة في هذا السياق كان تصادم فيها معه حين حقّر أهل حوران. وهنا يبرز الفرق الدلالي في إحدى سمات شخصية يوسف، وذلك من خلال وصفه لمالك بأنه شخص مؤثر ذو حضور ملموس لطالما استمتع بحضور نقاشاته مع أنطون سعادة. أمّا فيما يتعلق بعلاقته بهذا الأخير، ومن ثم انضمامه إلى حزبه، فيبرز المعنى جلياً إذا ما قارنا علاقة الزعيم بالأخوين يوسف وفايز. ففي الوقت الذي قلما جادل يوسف زعيم الحزب في أفكاره أو قراراته ومنها تغييره المتكرر دستور الحزب، كتب فايز (وكان تقدّم بسرعة فائقة في الحزب على الرغم من انضمامه بعد يوسف بعامين) في جريدة الحزب منتقداً، وبشدة، قرارات زعيمه الغريبة بتبني الحزب فلسفة أسماها سعادة "المدرحية"، وهي خليط من المادية والروحية، إضافة إلى اعتباره العراق جزءاً من سورية الطبيعية وهو ما أسماه "سوراقيا". وكان يوسف مؤيداً جدالات أخيه المنطقية والفكرية في رده على أنطون سعادة، لكنه فضل الانسحاب على التصادم بذلك الشكل المدوي الذي حدث مع فايز وتسبب بخروجه من الحزب في سنة 1947. ولم يعترض يوسف على الطقوس الحزبية التي لم تعجبه كتأدية التحية باليد اليمنى المائلة – كما هي النازية – وترديد: "يحيا الزعيم"، كما أن خلافه الفكري مع سعادة، والذي فحواه أن "خلاص فلسطين هو شأن قومي عربي وليس قومياً سورياً" لم يأخذ طابعاً علنياً ولا فردياً، على الرغم من أهميته. وبهذه الطريقة ظلت علاقاته بأعضاء الحزب مقبولة لأنه لم يلطخ سمعة الحزب كما فعل فايز، فهذا الأخير كان متحمساً لأفكاره، وقد كتب وجادل القوميين العرب والشيوعيين، الأمر الذي ألحق به متاعب جمة، إذ بلغ عداء وصفي التل له حداً جعله يشتكي – وهو الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء الأردن – إلى الجامعة مدعياً أن فايز حاول قتله، فشكلت الجامعة لجنة تحقيق توصلت من خلالها إلى أن الاتهام باطل. وفي حادثة أُخرى، نجا فايز من الموت بأعجوبة بعدما انهال أفراد من الشيوعيين بالعصي على رأسه، ثم تركوه مغشياً عليه ظانين أنه فارق الحياة.

تظل مرحلة انضمام يوسف إلى الحزب جدلية، فهو لم يُخف إعجابه بأنطون سعادة المثقف، والملم باللغات الألمانية والروسية والإسبانية، والباحث في التاريخ وعلم الآثار، والمفكر في النظريات السياسية والاقتصادية. ويؤكد يوسف أنه لم يشهد يوماً استطاع فيه أحد من محاوري سعادة – بمن فيهم شارل مالك وقسطنطين زريق والشاعر سعيد عقل – أن يكسب جولة نقاش فكري معه، بل إن سعيد عقل، وعلى الرغم من مجادلاته الساخنة مع أنطون سعادة – وكانت تتم غالباً في بيت عائلة المعلوف – هو من كتب النشيد الرسمي للحزب! على أن هنالك علامة تعجب أُخرى لم توضحها سيرة يوسف غير المكتملة، وتظهر في قصة تزامن ذهابه إلى الأردن لشراء سيارة بسعر مخفّض، مع الوقت الذي حُكم على زعيمه أنطون سعادة بالإعدام وأُعدم! فالأحداث السياسية في لبنان كانت عاصفة ومثيرة، وقد تعذر فيها تصديق أن عضواً في حزب سعادة كان مهتماً بشراء سيارة من الأردن في الوقت الذي كان الزعيم يواجه الموت المحتم. ورفض سعادة استئناف الحكم قبل إعدامه، مع أن فريقاً من أبرع المحامين الموكلين انبرى للدفاع عنه، وعلى رأسه حميد فرنجية شقيق سليمان فرنجية.

تنقل يوسف بعد تخرجه من الجامعة في سنة 1938، في عدة أعمال، ولفترات زمنية قصيرة، فقد عمل في شركة سوكوني فاكوم كمسؤول حسابات عن زيوت التشحيم، لكنه ما لبث أن ضاق ذرعاً بهذه الوظيفة فاستقال، ثم تعاقد لمدة سنة لتدريس التاريخ والجغرافيا والجبر والهندسة في إحدى مدارس تكريت في العراق، حيث وجد الحياة بدائية ومملة تفتقر إلى الحرية الاجتماعية التي عاشها في بيروت، الأمر الذي جعله يترك التدريس وينتقل إلى طبرية ليشغل وظيفة مساعد المدير العام لشركة الحمّة للينابيع المحدودة. وقام يوسف خلال أعوام عمله في إدارة هذه الشركة بالترويج لتوسيع رأس مالها، وذلك من خلال إدخال عدد من الأشخاص الذين يمتازون بالنزاهة والإبداع مثل مدير شركة "سابا وشركاه" في القدس. وفي صيف سنة 1943، حصل على عمل ذي مردود مالي أفضل كثيراً، هو منصب مدير فندق طبرية، وكان له في الأشهر العشرة التي أمضاها في إدارة هذا الفندق علاقات حميمة كثيراً مع الفتيات اليهوديات. وتذكر روزماري أنها سألته "إن كان يشعر بتناقض بين حياته الجنسية وحسّه القومي العربي، فقال إنه كان من المستحيل في تلك الأيام إقامة أي علاقة مع فتيات عربيات، لكنه أضاف لمسة من الأيديولوجيا الوطنية بالقول إن تلك العلاقات مع اليهوديات كانت أسلوباً للالتفاف على العدو." وعُرض على يوسف خلال عمله في طبرية وظيفة في القدس يقوم فيها بإنشاء صناديق توفير تعاونية يرئسها أحد مسؤولي الانتداب البريطاني، فأمضى في تلك الوظيفة بضعة أشهر فقط، انتقل بعدها إلى العمل في شركة "سابا وشركاه" مديراً لفرع القدس ومساعداً للمدير العام للشركة في العالم العربي، وقد عمل من خلالها على إنشاء فرع في لبنان. واستمر عمله في الشركة عشرة أشهر تقريباً إلى أن أرسل عزت طنوس (مثّل لاحقاً الهيئة العربية العليا في الأمم المتحدة) يطلب منه العمل في بيت المال العربي، وذلك بهدف جمع المال لشراء الأسلحة للحاج أمين الحسيني. ويذكر يوسف أن الأشهر العشرة التي عمل خلالها في بيت المال كانت من أكثر الفترات الحافلة بالنشاط السياسي كممثل للحزب السوري القومي في فلسطين، إلاّ إن الحزب، مع ذلك، اصطدم بعائقين رئيسيين، أولهما، عدم وجود استعداد كبير لدى الفلسطينيين لقبول أن فلسطين سورية وليست عربية، وثانيهما، أن للحزب زعيماً آخر غير الحاج أمين الحسيني، هذا فضلاً عن كونه مسيحياً. زد على ذلك رفض

أنطون سعادة فكرة انضمام حزبه إلى المفتي كي لا يخسر زعامته على الحزب. ويعترف يوسف بأنه تعرف إلى محامٍ رائع من جنين اسمه مصطفى أرشيد، كان في نظره "قوياً وفصيحاً ومفكراً ومنضبطاً"، وغيرها من الصفات التي تؤهله لأن يكون رئيس فرع الحزب في فلسطين، لكنه لم يكن معروفاً لقيادة الحزب كيوسف صايغ. وعلى الرغم من أن يوسف لا يتمتع بالصفات التي كان يتمتع بها أرشيد، فإنه بدأ يشارك على نطاق أوسع في السياسات الفلسطينية من خلال التعرف إلى الشخصيات الوطنية الفاعلة من آل الحسيني والخالدي، والتركيز على أوساط الشباب الذين كان يقابلهم في جمعية الشبان المسيحيين، وكذلك متابعة سجلات ملكية الأراضي والمستوطنات من خلال كتابة تقرير عن "جوع الأرض العربية"، وإعداد ورقة لملف عن القضية العربية من أجل عرضه على اللجنة الأنكلو – أميركية لتقصي الحقائق بشأن المشكلة الفلسطينية، وكتابة تقارير أُخرى عن الاقتصاد السياسي، إضافة إلى دراسة عن التجارة الخارجية لفلسطين.

تعرف يوسف إلى الحاج أمين الحسيني في سنة 1946 ووجده براغماتياً مرحباً بالحزب السوري القومي، إذ إنه لم يكن يزعج نفسه بالخلافات الأيديولوجية، وقد أبدى استعداده للتعاون مع أنطون سعادة وهو استعداد لم يجده في المقابل لدى سعادة. وكانت مشكلة الحاج الحسيني هي عدم إدراكه أهمية تشكيل قوة مسلحة وتوفير المال، ويرى يوسف صايغ أن نقطة ضعف المفتي الأساسية تمثلت في اعتقاده أن وضوح القضية الفلسطينية "أمر كاف في حد ذاته لمواجهة الموقف من دون إنشاء قوة مقاتلة بالمعنى الحديث." ويؤكد يوسف أن جزءاً من دواعي يأس الفلسطينيين خلال الفترة 1947 – 1948 هو التطور العسكري والتنظيمي لدى منظمات الإرغون وشتيرن، والذي ظهر جلياً في حادث تفجير فندق الملك داود، والذي شهده يوسف بنفسه عندما كان يقف على شرفة مبنى البايبل (الكتاب المقدس) مع فؤاد سابا. ومع ذلك تجلت الروح القتالية لدى المقاتلين الفلسطينيين في المناطق الريفية والقدس، وخصوصاً في المجموعات التي قادها بهجت أبو غربية وعبد القادر الحسيني قائد "جيش الجهاد المقدس"، وهي مجموعات كبدت الصهيونيين خسائر فادحة في الأرواح. ويروي صايغ قصة بالغة الأهمية عن دوره في محاولة إنقاذ القدس العربية من خلال ذهابه إلى عمّان لتبليغ الملك عبد الله – وبمبادرة من درويش المقدادي مدير المكتب العربي في القدس وتشجيع من عبد الله التل قائد وحدات الجيش العربي في القدس – صعوبة الوضع القائم، وأهمية إرسال تعزيزات لصد هجوم الصهيونيين على القدس. غير أن الملك استهجن تحذير يوسف وطلب الاتصال بالقنصلية الأردنية في القدس للتأكد من القصة، وجاءه رد القنصل – وكان هذا الأخير على علاقة بابنة أحد قناصل أميركا اللاتينية، التي كانت بدورها على اتصال بالوكالة اليهودية – بأن القصص عن قرب سقوط القدس في يد الصهيونيين هي كلام فارغ! وهنا، قال الملك أنه يصدق كلام قنصله، وأنه لن يرسل رجالاً إلى القدس، لا عسكريين ولا مدنيين، مستغرباً أي نوع من المدن هذه، وأي نوع من الدفاع هذا إذا لم يكن قادراً على الانتظار عدة أيام، ومؤكداً أن جيشه المظفر سيحرر القدس كلها في غضون أيام. أمّا جيش الإنقاذ التابع لفوزي القاوقجي فشاع أنه تمكن من إرسال مئة وخمسين جندياً كان يقودهم المقدم العراقي فاضل بيك، غير أن الجنود لم يصلوا قط على الرغم من التأكيدات ليوسف هاتفياً، وخمس مرات يومياً، أنهم سيصلون في أي لحظة! وكان ذلك قبل يومين من إلقاء القبض على يوسف كأسير حرب، وبعد أربعة أو خمسة أيام من إنشاء "دولة إسرائيل".

كشفت أشهر الاعتقال ما بين أيار/مايو 1948 وربيع سنة 1949 عن المعدن الصلب لشخصية يوسف صايغ وهو ما زال في الثانية والثلاثين، وأظهرت مقارعته الضباط الإسرائيليين جوانب شخصية مختلفة عن تلك التي ظهرت في علاقته الدبلوماسية والمهادنة لزعيم الحزب السوري القومي أنطون سعادة. ففي القدس، كان يوسف سجل اسمه واسم عشرين شاباً من رفاقه – بعد تخلصهم من أوراقهم الثبوتية وجوازات سفرهم – كنزلاء في المضافة الألمانية "الهوسبيس"، التي كانت تحت حماية راية الصليب الأحمر، وقد قام الرفاق بانتخاب يوسف قائداً للمجموعة. وبعد دخول القوات الصهيونية إلى المضافة واعتقالهم، حاولت معاملتهم كمجموعة مخربين، لكن يوسف وقف لهم بالمرصاد مذكراً بأنهم أسرى حرب، وأنه يتوجب التصرف معه ومع رفاقه بهذه الصفة. وخضع يوسف للتحقيق، وأخبر المحققين أنه أنهى عمله كمدير للمكتب الرئيسي لشركة "سابا وشركاه"، وأنه يعمل حالياً صحافياً في جريدة "النهار" اللبنانية التي كان يرئس تحريرها غسان تويني، ثم سأله الضابط عن موقف الحزب السوري القومي من إنشاء إسرائيل – وكان وجد بعض منشورات الحزب في سيارة يوسف التي صادرتها القوات الإسرائيلية – فأجاب موضحاً موقفه بكل صدق وحزم. بعد ذلك، نُقل مع رفاقه إلى معتقل في مستوطنة النبي شعلان وكان فيه 123 أسيراً، وكانت أوضاع المعتقلين مزرية إذ لا أغطية ولا طعام حقيقياً، وكان يُقدم لهم ثلاثة ليترات من الماء كل 24 ساعة لتُستخدم في الشرب والاستحمام وغسل الأواني، ولم يكونوا يجدون غير الحجارة لمسح مؤخراتهم. وتجلت صلابة يوسف في هذا المعتقل وهو يقف بشموخ في وجه الضابط الإسرائيلي الذي نعت رجاله بالكلاب، وأطلق ثلاث رصاصات بين قدمي يوسف لتحديه له. بعد أسابيع حضر الصليب الأحمر بناء على إخبار الممرضات الألمانيات بوجود المعتقلين، وبعد محاولة إنكار متكررة، أذعن الإسرائيليون واعترفوا بوجود الشباب في المعتقل. ولا يزال يوسف يذكر يوم أوقف طبيب الصليب الأحمر المعتقلين جميعاً صفاً واحداً وطلب أن يختاروا قائداً لهم، فصاح الجميع "يوسف صايغ"!

نُقلت المجموعة بعد الاعتراف بها أسرى حرب إلى معتقل جلْيل (يقع بين يافا وهيرتسليا)، وكان يضم 800 جندي

مصري و30 أو 40 جندياً سورياً. وعُيّن الدكتور شنايدمان – أحد رجالات شتيرن – ضابطاً مسؤولاً عن المعتقل، وكان رجلاً متبجحاً، أمّا مساعده فكان ضابطاً مصرياً يهودياً أقام صداقة مع المعتقلين لأنه يتحدث العربية، وكان يلقي النكات على الطريقة المصرية، لكنه تجنب الاختلاط بالمعتقلين المصريين. وفي هذا المعتقل نشأت بين يوسف ومعتقل مصري اسمه محمد عنان صداقة حميمة، وكان هذا المصري قائد سرية، وقد ألف كتاباً فيما بعد عنوانه "كنت أسيراً"، قال فيه: "كان ممثل المعتقلين فلسطينياً برز شأنه في معسكر جِلْيل... [وهذا ما أشعرنا] نحن الضباط المصريين، بالغضب لأنه، وفقاً للقانون الدولي، يجب أن يكون أعلى الضباط رتبة هو ممثِّل المعتقلين"، غير أن يوسف صايغ كان رجلاً صلباً، وكان أفضل من صاحب الرتبة الأعلى بين الجنود المصريين، وهو "مقدَّم سوداني لطيف جداً، لكنه كان ضعيفاً في مواجهة الإسرائيليين." تعرف يوسف أيضاً إلى مجموعة من خمسة ضباط في سلاح الجو المصري أُسقطت طائراتهم في يوم واحد فوق قاعدة إسرائيلية قرب حيفا، إذ كان في حيازتهم خرائط خطأ ظنوا من خلالها أنهم يحلقون فوق قاعدة بريطانية! ويذكر يوسف كذلك، أنه كان السبب في نقل الضابط المسؤول عن المعتقل الدكتور شنايدمان، وذلك جراء شكوى قدمها إلى الصليب الأحمر وكشف فيها أن حالات إعدام لمقاتلين تمت في المعتقل، فادعى شنايدمان أنهم حاولوا الفرار، لكن بعد أن كشفت بعثة الصليب الأحمر على جثة أحد المقاتلين المعتقلين تبين أن الرصاص كان موجهاً إلى الصدر. ويستذكر يوسف نقله إلى معسكر آخر هو أنصار 3 حيث تعرف إلى قائد المعسكر الفلسطيني داود جبر، وكان رقيباً في الجيش الأردني، وقد حاول هذا الأخير الفرار مع مجموعة من المعتقلين، كما كان دوّن ملاحظات عن خطوط الدفاع الإسرائيلية في المعتقل مررها إلى يوسف الذي قام بتهريبها يوم أفرج عنه، ثم حاول إيصالها إلى القيادات العسكرية الأردنية (وكان الضابط المسؤول بريطانياً) والسورية، لكنه لم يلحظ منها اهتماماً بهذه المعلومات العسكرية. بل إن حزنه بلغ أقصى مداه عندما علم بعد الإفراج عنه أن الجيش الأردني كان أسر 1200 مقاتل يهودي حين سقط الحي اليهودي في يده، وأن الملك عبد الله رفض اقتراحاً من منير أبو فاضل (وهو لبناني كان موظفاً زمن الانتداب البريطاني في الشرطة، وأصبح لاحقاً نائباً في البرلمان اللبناني، ثم نائباً لرئيس المجلس النيابي) بمبادلتهم بالأسرى الـ 123 المعتقلين لدى الإسرائيليين، وقال: "أنا لا أبادل عربياً واحداً حتى بعشرة من اليهود. سأحرر رجالي بقوة السيف."

أصبح يوسف أكثر نضجاً بعد خروجه من المعتقل الإسرائيلي، غير أن نشاطه السياسي في الفترة 1949 – 1954 ظل محدوداً، إذ لم يكن متحمساً لنسخ تجربته مع الحزب السوري القومي بالعمل في منظمات سرية. فقد عمل لفترة وجيزة مساعداً غير متفرغ لمحاسب في شركة نقليات، ثم انتقل بسرعة إلى العمل مساعداً فنياً للخبير الاقتصادي في وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا)، وهي الفترة ذاتها التي بدأ فيها دراسة الماجستير في الاقتصاد في الجامعة الأميركية في بيروت. وقام يوسف خلال عمله مع الأونروا بإعداد دراسة عن اللاجئين الفلسطينيين في الأردن، وأُخرى عن القطن في شمال شرق سورية وفي مصر، كما كتب بحثاً عن الاقتصاد في العراق. استقال يوسف فيما بعد من وكالة الأونروا ليعمل معيداً في الجامعة الأميركية في بيروت، ثم أصبح عضواً في هيئة التدريس، ومساعداً لمدير مؤسسة الأبحاث الاقتصادية التي قام فيها بكتابة بحث بعنوان "أوراق اقتصادية حول الشرق الأوسط". وبعد سنة رُقي إلى درجة أستاذ مساعد، ثم نجح في الحصول على منحة لدراسة الدكتوراه في جامعة جون هوبكنز في أميركا، برفقة زوجته الحامل روزماري (وكانا تزوجا حديثاً). واختار يوسف موضوعاً بحثياً مهماً عن "الأعمال التجارية الحرة"، نال عليه منحة أُخرى من مؤسسة روكفلر، وأصدر كتاب "الخبز مع الكرامة" الذي نال عليه جائزة أصدقاء الكتاب لسنة 1961، كما حقق كتابه عن "الاقتصاد الإسرائيلي" مكانة كبيرة في العالم العربي من الناحية الفكرية. بعد حرب حزيران سنة 1967 اندفع يوسف ثانية إلى العمل السياسي، فحضر اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني سنة 1968، وعلى الرغم من محاولة كثيرين أمثال وديع حداد وزهير العلمي إقناعه بالقبول برئاسة المجلس خلفاً لأحمد الشقيري، فإنه ظل متردداً في القبول، وأسعفه في ذلك رغبة عبد المحسن القطان في شغل هذا المنصب. عمل يوسف بعد ذلك مديراً لمركز التخطيط، الأمر الذي جعله يباشر عمله المكثف في الشؤون الفلسطينية ستة أعوام، ثم قام في سنة 1969 باستكمال خطة شاملة ومفصلة أعد منها نسخاً لجميع أعضاء اللجنة التنفيذية. وكان توصيل الخطة في صناديق كرتونية إلى عمّان مسألة صعبة لأنها تتناول قضايا سياسية مهمة كعلاقة الفلسطينيين بالأردن، والتخطيط العسكري، وغيرهما، وقد شرح هذا لأبو إياد ولعرفات، وتم الاتفاق على أن يسافر يوسف إلى عمّان ومعه الصناديق، على أن يستقبله في المطار أفراد من منظمة التحرير الفلسطينية لاستلامها قبل تفتيشها في دائرة الجمارك الأردنية. وكم كانت صدمته وغضبه كبيرين عندما لم يجد أحداً من مكتب منظمة التحرير الفلسطينية ينتظره في المطار، ولم ينقذه وينقذ صناديقه من موظف الجمارك إلاّ مدير الجمارك ذاته، وهو داود زبانة الذي كان أسير حرب معه في فلسطين. وكان نسيان الموعد هو العذر! لكن إحباط يوسف كان مضاعفاً عندما علم بأن خطته لم تُقرأ لأنها مكونة من 400 صفحة، والقيادة ترغب في خلاصة بأربع صفحات فقط. ويستذكر يوسف لقاءً له مع كمال ناصر في بيروت، قال له فيه هذا الأخير أنه سمع عضو اللجنة التنفيذية أبو اللطف يقول "ثورة وتخطيط ما بيصير"، فما كان من يوسف إلى أن طلب من ناصر أن يخبر أبو اللطف بأن "الثورة مشتقة من ثار، مش من ثور." ويستذكر أيضاً يوم دعاه وليد الخالدي لتناول المشروب، وكان يوسف عُيّن حديثاً مديراً لمركز التخطيط، ويومها قال الخالدي ليوسف: "يوسف، إنت حمار... [لأنك] مهما تخطط، ومهما تكون

خطتك ممتازة، وذكية... إذا ما كان عرفات مقتنع بالخطة، ما بتمشي. وحتى يقبلها عرفات، لازم تيجي من واحد قريب جداً من مركز النفوذ، وهي (فتح)."

تولى يوسف صايغ رئاسة الصندوق القومي الفلسطيني، وكان عمله مع ياسر عرفات غاية في الصعوبة؛ فقلة التنظيم والإدارة كانت أكثر ما يكدره، وهو يذكر أن أبو عمار كان يرسل إليه في أحيان كثيرة، قصاصات من الورق أو حتى علب سجائر مكتوباً عليها: يُرجى دفع المبلغ الفلاني إلى فلان. على أن حادثاً أكبر جعل يوسف يدرك حقيقة أن أبو عمار كان يتسلم أموالاً تخص خزينة الصندوق القومي ثم يحولها إلى صندوق "فتح". ففي سنة 1974، قابل يوسف عن طريق المصادفة وزير المال الكويتي عبد الرحمن سالم العتيقي الذي بلّغه أن مجلس الوزراء الكويتي قرر تقديم عشرة ملايين دولار إلى الصندوق. وبعد أسابيع قليلة علم الصايغ أن عرفات طلب أن يُصرف الشيك لأمر "القائد العام للثورة الفلسطينية" وهو منصب غير دستوري وغير معترف به، إذ غالباً ما تصرف الشيكات إمّا لأمر رئيس اللجنة التنفيذية، وإمّا رئيس الصندوق القومي، وإمّا رئيس المجلس الوطني. وانتهت مدة رئاسة يوسف للصندوق القومي في سنة 1974، وقد آثر بعدها عدم الاستمرار فيه لعدم قدرته على الانسجام مع عرفات على الرغم من الإلحاح عليه للاستمرار دورة أُخرى.

بدأت رحلة يوسف صايغ الأخيرة مع الشأن السياسي الفلسطيني حين طلب منه أبو العلاء إعداد دراسة عن الدعائم الاقتصادية لدولة فلسطين المستقلة، فأنجزها في 400 صفحة في أواخر سنة 1989، وقد أعجب أبو العلاء بها، ودعا إلى اجتماع في منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (اليونيدو) في فيينا لمناقشة رؤية يوسف للبرنامج. بعد ذلك، استمر العمل على تطويرها في تونس على مدار ثلاثة أعوام أُخرى، وشملت قضايا المياه والهجرة واللاجئين والأمن، وانتهى يوسف من إعداد الخطة في صيف سنة 1993، وكانت خطة شاملة ومفيدة لمحادثات اللجان متعددة الطرف المنبثقة من مؤتمر مدريد للسلام، ومنها مجموعة العمل الخاصة بالتنمية الاقتصادية، والتي رفض الإسرائيليون حضور اجتماعاتها إذا ما ترأس يوسف صايغ الوفد الفلسطيني.

ارتبط اسم يوسف صايغ بمشاريع اقتصادية مثل مشروع "المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والإعمار" (بكدار)، وقد وقع ضحية سلطة أبو عمار ورغبته في السيطرة على هذا المشروع، إذ إن هذا الأخير أراد أن تكون له رئاسة الجهاز الاستشاري ومجلس الإدارة، وهو ما رفضه الأوروبيون، لأنهم لم يرغبوا في إعطاء عرفات السلطة المطلقة للتحكم في مشروع تبلغ ميزانيته مليارين وأربعمئة مليون دولار على مدى خمسة أعوام. وافق عرفات في نهاية الأمر على الصيغة الأوروبية المقترحة بحيث يصبح فاروق القدومي رئيساً لمجلس الإدارة، والذي توكل إليه جميع الوظائف المهمة كاختيار أولويات التنمية والمشاريع وتخصيص الأموال والإشراف على الأشغال، في حين يبقى عرفات رئيساً للهيئة الاستشارية. وجاءت موافقة عرفات لسبب بسيط – كما أوضح يوسف – هو عدم اعترافه بهذه الصيغة، وبقاؤه الرئيس الفعلي للمشروع.

كشفت سيرة يوسف صايغ تفصيلات عن مراحل زمنية مهمة عاصر فيها القضية الفلسطينية والسياسيين الفلسطينيين، غير أن الترابط الزمني والمنطقي للأحداث في الفصلين الأخيرين كان فقيراً وذلك لوجود فجوات زمنية لم تتناولها الأشرطة المسجلة. كما غاب عن أسلوب السرد عذوبة اللغة التي تميزت بها مذكرات أخيه الأصغر أنيس، ذلك بأن سيرة يوسف صايغ منقولة عن اللغة الإنكليزية، وقد قام مجيد البرغوثي بترجمتها، وأنيس صايغ بتحريرها. ■

(*) أستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx